ماهية العلم واستعماله لأجل سعادة الإنسانية

د. عبد الرحيم بودلال(*)

أود في بداية هذا العرض أن أشير إلى أن بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله صاحب المشروع الإصلاحي المتميز يستعمل في كل مجال من مجالات مشروعه طائفة من المصطلحات تجعلنا نبني مشاريع فكرية أو علمية على أساسها، ولعل أهم هذه المصطلحات المناسبة لهذا العرض تتلخص في: النظام والانتظام والاتزان والقوانين والصانع والصناعة والمعنى الحرفي والمعنى الاسمي، وهي مصطلحات تنتمي إلى المجال العلمي المضبوط، المؤسس على المنهج التجريبي والملاحظة.

الملاحظة الثانية: أن النورسي يوظف الأسماء الحسنى توظيفا علميا دقيقا، فلكل اسم تجل في المخلوقات وهي وإن كانت متجلية في كل المخلوقات، فإن بعض مجالات الحياة قد تغلب بعض المعاني على الأخرى فتجعلها أصلا.

الملاحظة الثالثة: وهي أن النورسي أسس مشروعا دافع فيه عن الانسجام والتكامل بين كل أصناف المعرفة، مما جعله يمزج بين دلالات العقل المادية وأحاسيس القلب المعنوية، وفي حديثه عن هذا الانسجام كان دائم الرد على من يغلب جانبا على جانب كما رد على من يوظف هذه العلوم والمعارف توظيفا سيئا.

الملاحظة الرابعة: أن تدبر الكون وقراءة معانيه تختلف بين الكافر الجاحد وبين المؤمن المعتبر، وهذا الاختلاف في مشروع النورسي يدعو إلى قراءتين اثنتين: القراءة أو المعنى الحرفي الذي سأوضحه أثناء هذا العرض، والمعنى الإسمي.

(*) أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب.
sboudinar@hotmail.com

هذه الملاحظات الأولية أراها مناسبة لقراءة مشروع النورسي قراءة علمية، ثم إن النورسي حين تحدث عن العلم ميز بين العلم المطلق والعلمي النسبي المحدود في الزمان والمكان المتجلي عن العلم المطلق.

مجموعة رسائل النور للإمام سعيد النورسي تفسير إصلاحي مؤسس على قراءة خاصة بالإمام سعيد للقرآن الكريم، وهي قراءة إيمانية تبحث عن أسس الإيمان الحق من خلال كشف مجوهرات الآيات القرآنية المعبرة عن السنن الإلهية في عملية الخلق، وتوجيه الإنسان نحو التعامل مع المخلوقات، وهذا المشروع يقوم على تنبيه ملكتي العقل والقلب أو الروح والعقل معا، وبشكل مواز ومتكامل بحيث يمزج بين وظيفتيهما، ويدعو كل منهما إلى أن يقوم بدور مكمل للآخر، فلا تنافر ولا تصادم بين الملكتين، بل تمازج تام في الأدوار، لذا جاء مشروع النورسي في الرسائل مبينا للدورين اللذين على العقل والقلب القيام بهما، حتى تتحقق إنسانية الإنسان، وسعادته في الدارين الأولى والآخرة.

والنورسي إذ يلح في كل ما كتب على الحالات التي يندرج فيها العقل والقلب للوصول إلى مدارك الصالحين، فإنه يقدم بتفصيل محكم، ومنهج منظم وظيفة كل واحد منهما، في صورة يحرص من خلالها على المزج وتحقيق التكامل، المفضي إلى عدم الفصل والتنافر، بل يقوم على الجمع والانسجام، ولذلك جاء مشروعه متكامل الجوانب، واضح المعالم، شاملا لكل مكنونات الحياة، وآيات الكون، فدعا إلى النظر والتفكر والاستيعاب، ثم التمثل والإدراك، والتحقق والتيقن، وهو بهذا ينظر إلى القرآن الكريم، من خلال المخلوقات الكونية، وينظر إلى الكون من خلال الآيات القرآنية معتبرا الكون قرآنا منظورا والقرآن كونا مسطورا.

وفي كل نظر دلالات وعبر تنسجم مع روح الإصلاح، وتؤسس للإيمان الحق، وتوصل إلى السعادة الأبدية، المقصودة من الرسالة السماوية.

والنورسي بهذا المشروع يؤسس لمنهج إصلاحي يتجاوز المشاريع التي تغلب جانبا على جانب أو تراعي جانبا وتمهل الآخر؛ فهو يرى أن دور العقل لا يقل عن دور القلب وأن طبيعة الروح لا تختلف عن طبيعة النظر بل كل يؤدي إلى الآخر ويجعل منه سبيلا للوصول إلى المعرفة القرآنية المطلوبة في التعامل مع الإنسان، فللروح ملكات وللعقل

قوانين، يقول النورسي "إن السمو والرقي الحقيق، إنما هو بتوجيه القلب، والسر والروح والعقل"[١]

فهذه مجتمعة لها وظيفة تحقق العبودية والسعادة وهو بهذا ينكر على النظرة المادية المجزئة للأدوار المؤدية للهبوط والسقوط والانحطاط.

لقد أظهر علماء الإسلام من خلال قراءاتهم المؤسسة للآيات القرآنية، أن القرآن الكريم يخاطب العقل كما يخاطب الروح، أو القلب في الوصول إلى الإيمان، فجاءت نتيجة هذه القراءات أن القلب والعقل متكاملان، لا تنافر بينهما، ولذلك دعوا في تأسيس الحضارة إلى الاهتمام بهما، وإبراز وظيفة كل واحد منهما: "إن عقلي قد يرافق قلبي، في سيره، فيعطي القلب مشهوده الذوقي ليد القلب، فيبرز العقل على عادته في صورة المبرهن التمثيلي"[٢].

من هنا جاء سعيد النورسي ليبرز هذا في أسلوب دعوي إصلاحي يجعل من الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى خاصة منهجا في الحديث عن الأدوار التي منحها الله سبحانه وتعالى للقلب والأدوار التي منحها للعقل، كل ذلك في صورة من التمثيل رائعة.

فانظر إلى كلامه وهو يعرف القرآن الكريم لتعلم مدى المزج المطلق بين العقل والقلب: "اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقيقة دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها. فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صورة مختلفة وأساليب متنوعة".[٣]

لقد أدرك النورسي وهو ينظر إلى عملية الخلق الإلهي، أن الخلق علم[٤] قال: "اعلم أن النواة قبل أن تتشجر والنطفة قبل أن تتبشر والبيضة قبل أن تتطير والجنة قبل أن تتسنبل، لا بد لأن تكون تحت تدبير علم تام نافذ وتربية، لتساق من بين ما لا يحد من

---

(١) النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣. ص ١١٦.

(٢) النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٤. ص ٤١٣.

(٣) المثنوي العربي النوري ص ٧٠.

(٤) نفسه ص ٤٠٣.

الطرق العقيمة المعوجة، إلى الصراط المستقيم المنتجة"[١] هذا العلم الأزلي علم علام الغيوب، وهو العلم الذي تقوم به الكائنات، وهنا تجد براعة النورسي في الربط بين الغيب والمادة بين الصورة الإيمانية الخلاقة، المؤسسة على اليقين بالله وبين الصورة المادية التي تجلي الصورة الإيمانية، فالأصل أن هناك قدرة قادرة على تصوير الأشياء، في الأرحام، وهي أصل كل وجود، ثم هذه الأشياء، التي تبدأ بالنواة، هي عبارة عن "تذكرة" مختصرة من كتاب الكون العظيم، كتاب القدرة، فلذلك فالبذرة أصل المخلوق، والبذرة من تقدير القدير صاحب القدرة العظمى على الخلق.

وبهذه البذرة سينشأ الخلق، كل مخلوق، وفق قانون الخلق: "فكأن كلا من النواة والنطفة والبيضة، والحبة تذكرة - والتذكرة هي الحاملة لهوية الشيء - مختصرة، استنسخت من الكتاب المبين من كتب القدرة، أو فهرسة استخرجت من الإلمام من كتب العلم الأزلي، لا سيما من باب الميزان أو النظام أو فذلكة أوامر متمثلة متمركزة، ممتزجة، تنزلت من ربوبية القدير على كل شيء العليم بكل شيء جل جلاله"[٢]

النورسي هنا يحدد عملية الخلق وكأنها كتاب يحتوي مكتوبات، لكنه ذو خصوصية تميزه، وهو أنه من عند مقدر المقادير، وصاحب القدرة الأزلية، والكتاب هو القرآن الكريم، والمطلع على فحواه لا بد أن ينظر إلى مكتوبات الخلق بتفاصيلها.

وفي هذا المقام تأتي أهمية الاطلاع على العلوم المادية، ويلخصها النورسي في ضرورة النظر في المخلوقات ومن خلالها إلى مكنونات الخلق. والبداية تكون من البذرة وما تمر به من مراحل حتى يستوي الخلق مخلوقا في صورته المرئية، كامل الخلقة لكن المراحل التي يمر بها تقوم عل علم دقيق مؤسس لكل المخلوقات.

وقبل أن يحدثنا النورسي عن موازين هذا الخلق يرشد إلى درس إيماني في غاية الأهمية وهو دليل على المعرفة وسبلها.

وأختم هذا المبحث بأمر يرشد إليه كلام النورسي من خلال قولة لها من الدلالات ما يبين مدى امتزاج العقل والقلب في الإدراك عند النورسي، هذه القولة هي:

العقول السليمة المنورة والقلوب السليمة النورانية

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه ص ٤٠٣.

فهما: "اللتان لا تخلو منهما طائفة من طوائف البشر، فالعقل والقلب هما بحكم نواة الإنسان ولبه وبفضلهما استطاع أن يصبح ثمرة الكون، ويملكان من القدرة على الانبساط والاتساع ما يمكنهما أن يطويا العالم كله رغم صغرهما فرأى السائح: أن القلوب والعقول برازخ إنسانية بين عالمي الغيب والشهادة، فالعلاقات والعلامات بين ذينك العالمين -بالنسبة لإنسان- تجري في تلك النقاط؛ لذا خاطب عقله وقلبه قائلا: "أقبلا فإن أقصر الطرق الموصلة إلى الحقيقة هي من بابكما فهيا لتستفيد بمطالعتنا العقول والقلوب وينشر صفحات العقول وينشر صفحات القلوب ممعنا النظر مطيلا الفكر، فرأى أن جميع العقول المستقيمة المنورة تتفق في العقيدة الراسخة الواضحة في الإيمان والتوحيد، وتتطابق في اليقين الجازم والاقتناع المطمئن، رغم التباين الواسع في استعداداتها والبعد والمخالفة بين مذاهبها."[١]

فالاتفاق بين القلب والعقل يؤدي إلى القول بآمنت بالله.[٢]

المعنى الحرفي والمعنى الاسمي:

النظر إلى المخلوقات قسمان: نظر حرفي ونظر قصدي.

فأما النظر الحرفي فهو الذي يقصد به الدلالة الاعتبارية حيث يصبح الاهتمام به هو الاعتبار والبحث عن كوامن الخلق، ولذلك يكون المؤمن في نظره يهدف إلى معنى الموجود في هذه المخلوقات والمرشد إلى الخالق، وقد اعتبره النورسي معنى في غيره وسماه بالمعنى الحرفي لأن الحرف يدل على معنى في غيره ولا يدل على معنى في نفسه.

فأما النظر القصدي فيهتم صاحبه بالشيء نفسه، ولذلك يكون الناظر هنا غير عابئ بما يدل عليه المخلوق. وبهذا التقسيم يميز النورسي بين الكافر، والمؤمن، فنظر المؤمن حرفي ونظر الكافر قصدي.

يشرح النورسي الفرق بين المعنيين بقوله: "ففي كل مصنوع وجهان، وجه ينظر إلى ذاته وصفاته الذاتية، ووجه ينظر إلى صانعه، وإلى ما يتجلى إليه من أسمائه فاطره"[٣].

---

(١) النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣. ص ١٦٠.

(٢) نفسه ص ١٦١.

(٣) المثنوي ص ص ٤٠٤.

ويبين أحسن الوجهين فيقول: "والوجه الثاني، أوسع مجالا وأكمل مآلا، إذ كما أن كل حرف من كتاب، يدل على نفسه، وبوجه واحد. ويدل على كاتبه بوجوه كثرة، ويعرّف كاتبه، ويصفه للناظر بمقدار كلمات كثيرة، كذلك أن كل مصنوع الذي هو حرف، من كتاب القدرة، يدل على وجوده ونفسه بمقدار جرمه، ونفسه، وبوجه واحد وهو وجده الصوري، لكن يدل على نقاشه الأزلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من أسمائه المتجلية على ذلك المصنوع بمقدار قصيدة طويلة"[١].

هذا الإقرار بعملية الخلق بهذه الكيفية، التي تجعل من القدرة الإلهية كتابا، تنقش فيه كل الكائنات، أو المخلوقات، ومن البذرة أو النواة تذكرة وصورة المخلوق الأولى تدعو إلى التفكر والبحث في الخلق من خلال المخلوقات نفسها وكيف تساق لتصل إلى الصورة المنظورة في الكون.

فالقدرة كتاب أزلي علمه مطلق، والنواة بذرة المخلوقات الكائنات، وصورة الكائنات مادة النظر، وتجلي أسماء الله الحسنى، والنظر في هذه الكائنات، لا بد أن يرشد إلى الخالق، لا إلى صورة المخلوق فحسب، كما تزعم الفلسفات المادية، والعلوم المادية التي تقف أصحابها عند الصورة، وهي قصد الحلوق دون الغوص في دلالاتها على الخالق، والعلم بطبيعة المخلوقات ذو طبيعة إيمانية تبدأ من النواة لتصل إلى قدرة خالق النواة، وبينهما صورة مادية قابلة للتحليل والتدقيق: "فمن بين العلم المطلق والقدرة المطلقة ينهض المخلوق قائما سوي الخلقة.

ووظيفة العلم هي البحث عن دلائل القدرة الإلهية.

والنورسي بهذا التحليل يريد أن يحول المعجزات والخوارق والكرامات إلى بحث في صورة المخلوقات بدل التسليم دون الاعتبار بهذه المعجزات والخوارق والكرامات، فالمعجزة كامنة في ذلك الانتقال الذي يعرف المخلوق من الإقدار إلى الصورة الكاملة المؤدية إلى الوظيفة الرسالية في هذا الكون.

تجلي الأسماء الحسنى في المخلوقات.

لقد أدرك النورسي بقراءته الإيمانية للقرآن الكريم أن أسماء الله الحسنى تتجلى بأنوارها على كل المخلوقات، وأن هذه الأسماء بما تدل عليه من معان مطلقة، قد

---

(١) المثنوي ص ٤٠٤.

استوعب الكائنات المخلوقة بدلالاتها، فلكل اسم دلالة، ولكل دلالة تجل، ولكل تجل صور، تظهر فيها المخلوقات في أكمل دلالتها الإيمانية.

وإذا تتبعنا تفسير النورسي لهذه الأسماء وتجلياتها، المادية، فإن أعظم اسم يدل على الصورة العلمية المادية هو اسم الحكم الحكيم، الذي غالبا ما يربطه النورسي بالقوانين العلمية الصارمة من مثل النظام والانتظام والتوازن.

فالعلم المطلق تعبر عنه أسماؤه الحسنى المتجلية في الكائنات، والصانع الحكيم، تعبر عنها أسماؤه الحسنى في أعلى مراتبها، ولكل اسم تجل خاص به، ولعل أعظم اسم يعبر عن تجلي العلم والصناعة الكون المادي هو اسم الحكم الحكيم العليم، لما لمعاني الكلمة من دلالات تنطلق من وضع الأشياء في أماكنها المناسبة، فمن دلالات الحكمة الكبرى وضع الشيء المناسب في المكان المناسب، ولذلك فإتيان الحكمة إتيان للخير كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا".

والنورسي إذ يجعل من العلم المادي مرشدا للإيمان فإن اسم الله الحكيم يجلى هذا المعنى مما يدل عليه من نظام وانتظام وإتقان واتزان وتوازن.

فالحكمة الإلهية تقتضي الانتظام، والانتظام والحكمة متلازمان.

واسم الحكم الحكيم عند النورسي دليل الاستفادة من كل ما أنتجه الإنسان من علوم مادية، فقد أدرج في هذا العالم ألوف العوالم المنتظمة البديعة[1] يقول النورسي: "لذا فإن تجليات اسم الحكيم تبدو واضحة بأبهر صورها وأسطعها من خلال مشاعر الإنسان، ومن تضاعيف مذاقات الرزق، حتى غدا كل علم من مئات العلوم التي توصل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور يعرف تجليا واحدا من تجليلات اسم الحكم في نوع من الأنواع الحكمة"[2]

موازين: من عجائب جامعية نظرة الإنسان أن أدرج الفاطر الحكيم في هذا الجرم الصغير موازين لا تعد لوزن ما لا يحد من معجزات رحمته.

---

(١) اللمعات ص٥٣٢.

(٢) اللمعات ص ٥٣٢.

الصنعة اعلم أن الصنعة الإنسانية تسهل على الصانع بدرجة علمه بها، وتعبير بمقدار جهله. لا سيما في المصنوعات اللطيفة الدقيقة الجهازات. فكلما كان أعلم كانت عليه أيسر وأسهل.

لقد أكثر النورسي من الحديث عن الصنعة والدقة والحكمة، والانتظام ليظهر أن الصانع الحكيم، قد أتقن كل شيء خلفه، وأن هذه الصنعة وهذه الحكمة تجلي الجمال والجلال، لأن الكزن مخلوق ليجلي فيه الجمال، والجمال والجلال يقتضيان الإتقان والانتظام[1] وهنا يركز النورسي على قضية معرفة الإنسان لنفسه، وهي قضية مهمة وعلمية ودقيقة، حيث على الإنسان أن يكون واجب الاطلاع على نفسه، وقد استثمر النورسي الآيات القرآنية أحسن استثمار خصوصا الآيات الدالة على الالتفات إلى الذات ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

صور الإتقان هذه راجعة إذن إلى أقدر يدير الأمور بمقاديرها، وهنا يعمل النورسي على الرد على الماديين القائلين بأمر الصدفة. فالصدفة مخالفة لمنطق العقل والقوانين العقلية تقتضي وجود صانع.

لقد تحدث النورسي عن أمر العلم، وقوانينه ثم تحدث عن العلم ومكوناته، وقد احتل الحديث عن الذرة وما يرتبط بها من قوانين حيزا كبيرا في كتابات النورسي. والذرة مركز كل مادة وعلم، وهناك ارتباط بين الذرة والقدرة الإلهية ارتباطا المادة بمحركها ومدبر أمرها، حيث إن الذرة تتحرك بالقدرة ولولا القدرة لما كانت لكل ذرة حركة، لكن هذا العلم المنظم في كل كائن حي يرشد إلى أن الذرة تتحرك بقدرة وأن هذه القدرة هي المنظمة لعمل الذرة.

الذرة نظام.

لعل أبرز ما يركز عليه النورسي حين يتحدث عن عمل الذرة حديثه عن اختلاف عمل الكائنات، فلكل كائن وظيفة، وهذه الوظيفة يكتسبها من عمل الذرة، المأمورة بأمر الله. وأمر الله في الذرة يظهر بحركتها المنتظمة في جسم الكائن الحي، وباختلاف عناصر كل ذرة تختلف المخلوقات من حيث الوظائف التي تؤديها، ولذلك فعلم وظائف الذرة علم بإرادة الله في الكائنات، وهذا العلم يؤسس لأنظمة وقوانين الأشياء، وقد كان

(١) الصور والمرايا في تراث النورسي الفكري والوجداني، أديب إبراهيم الدباغ، من منشورات مجلة المشكاة المغربية ص ٥٠

النورسي شديد الحرص على الربط بين الذرة ونظامها ووظيفتها ليبرز دور الصانع الحكيم في الخلق.

ومن الذرات من يحضر في الكائنات كذرة الهواء والماء اللذين يحتلان كل جسم كائن حي.

ثم إن الحركة لا بد لها من محرك، وهنا يتساءل النورسي عن سر هذه الحركة قائلا: "وهكذا فالذرة المتحركة في الهواء المتحرك، إما أن تعلم الصورَ التي أُلبست علة الحيوانات والنباتات، وعلى ثمارها وأزهارها وتعلم أيضا مقادير كل منها وأنماط تصاميمها"[١] وهكذا تكون الحركة عالمة بما تحركه، فتحركه بعلمها به، وإما أن هذه الحركة أو تلك الذرة مأمورة بأمر من يعلم ذلك كله وعاملة بإرادته"[٢]، فهناك احتمالان:

١- علم الذرة بحقيقة هذه الأشياء.

٢- الذرة مأمورة بأمر من يعلم.

ولرد الاحتمال الأول يعمل النورسي على التمثيل لشخص سافر إلى أوروبا مركز العلم وزار معملا، وهو لا يعلم شيئا من أسرار هذا المعمل لكن بعد حين يصبح منجزا لأعمال بارعة تحير العقول بانتظامها الكامل وحكمها الفائقة، فلا شك أن هذا الرجل يعمل ما يعمل بعد أن تعلم من أستاذ لقنه سر الصناعة. وهكذا فالذرة مأمورة وليست عالمة بذاتها.[٣]

التمثيل المادي وصور الإتقان في الصنعة

حركة الذرة وعملها في الكائنات الحية يستدعي نظاما، وهذا النظام له قوانين يعمل بها، تظهر مدى الدقة والإتقان في سر الحركة في الكائنات، وهنا لا بد من الحديث عن أمرين في برنامج النورسي العلمي:

١- تمثيله المادي لهذه الصناعة الإلهية في أدق صورها.

٢- وصفه لهذا التمثيل بما يستدعيه النظام من دقة وإتقان.

---

(١) النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢. ص ٦٥٣.

(٢) الكلمات ص ٦٥٣.

(٣) نفسه ٦٥٣-٦٥٤.

فأما أمر التمثيل فقد أكثر النورسي من إيراده في كتبه، فهو يحدثنا مرة عن الصيدلية وما يوجد فيها من دواء وما يحتوي عليه كل دواء من مقادير، ومرة يذكر لنا المصانع وما ينسج فيها من مصنوعات، وثالثة يذكرنا بالحانوت وما يختزنه من أرزاق للإعاشة، ومرة يذكرنا بنظام جيش عظيم ونمط عيشه وتدريبه، ورابعة يذكر المصابيح الكهربائية المضيئة للمدن، ومرة يشبه الإنسان بالماكنة.

كل هذه التمثيلات يحدثنا فيها النورسي عن النظام الذي تمثله، فيجعل منها صورا للإتقان.

وبعد تحليله لهذه الأنواع المتنوعة، والمتعددة، يقرر قائلا: "إن هذه الموجودات التي هي في غاية الانتظام وفي منتهى الروعة، والميزان وفي تمام الإتقان وكمال الحكمة والاتزان، إن لم تستند إلى من هو قدير مطلق القدرة وحكيم مطلق الحكمة، يلزم الطبيعة أن تحضر في كل حفنة تراب معامل ومطابع بعدد معامل أوربا ومطابعها؛ كي تتمكن تلك الحفنة من أن تكون منشأ الأزهار والأثمار الجميلة اللطيفة"[1]

وهنا لا بد من التسجيل أن النورسي استطاع بفكره الثاقب أن يصور الجوانب المادية تصويرا محكما، فجمع بين التمثيل لأمر الصناعة وتصوير عملية الخلق في معان مادية في غاية الدقة، فكان كلما أورد مقالا تحدث عن صور عمله، ثم ربط بينه وبين أمر الذرة المخلوقة المقدرة بأمر القادر المحرك للكائنات، الحية، وهذه الذرة على صغر حجمها، فإن عملها يوازي صيدلية، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية وضعت فيها بموازين حسابية وبمقادير دقيقة فكما أنها ترينا أن وراءها صيدليا حكيما وكيميائيا ماهرا...

١- فالكرة الأرضية هي بمثابة الصيدلية التي بضم أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء - نباتا وحيوانا- وكل واحد منها في الحقيقة بمثابة زجاجة مستحضرات كيماوية دقيقة وقنينة مخاليط حيوية عجيبة فهذه الصيدلية الكبرى ترى حتى للعميان صيدليها الحكيم ذا الجلال، وتعرف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، قياسا على تلك الصيدلية في السوق، على وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه.

٢- والكرة الأرضية بمثابة مصنع فيه مئات الآلاف من مصانع رئيسة، وفي كل منها

(١) اللمعات ص ٢٧٦.

مئات الآلاف من المصانع المتقنة، يعرف لنا -بلا شك- صانعه، ومالكه، وفق مقاييس علم المكائن الذي تقرأونه، يعرفه بدرجة كمال هذا المصنع الإلهي وعظمته قياسا على ذلك المصنع الإنساني.

٣- والكرة الأرضية سفينة سبحانية تضم آلاف الأنواع من البضائع والأجهزة ومعلبات الغذاء. فهذا المخزن والحانوت الرباني، يُرى - على وفق مقاييس علم الإعاشة والتجارة الذي تقرأونه - صاحبه ومالكه ومتصرفه بدرجة عظمة هذا المخزن المصنوع من قبل الإنسان، ويعرفه لنا، ويحببه إلينا.

٤- والكرة الأرضية بمثابة معسكر يعبر عن أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته وتدريبه ورخصه الخاصة به، من لدن قائد عظيم واحد أحد جل وعلا، دون نسيان لأحد، ولا اختلاط، ولا تحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام.. فهذا المعسكر الشاسع الواسع للربيع الممتد على سطح الأرض يُرى - لأولي الألباب والبصائر - حاكم الأرض - العلوم العسكرية - وربها ومدبرها، وقائدها الأقدس الأجل ويعرف لهم، بدرجة كمال هذا المعسكر المهيب، ومدى عظمته، قياسا إلى ذلك المعسكر المذكور، بل يحبب مليكه - سبحانه - بالتحميد والتقديس والتسبيخ.

٥- الكرة الأرضية وما فيها من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح - على وفق مقاييس علم الكهرباء الذي قرأتموه أو ستقرأونه - سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرف منوره ومدبره البديع وصانعة الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه إلى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس، بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه.

٦- هذا الكون بمثابة كتاب كبير كتب في كل سطر منه كتاب بخط دقيق، وكتب في كل كلمة من كلماته سورة قرآنية، يبين مهارة كاتبه، وقدرة مؤلفه الكاملة.[1]

ويختم النورسي حديثه في هذا الفصل كما بدأه بقوله: "وهكذا فإن كل علم من العلوم العديدة جدا، يدل على خالق الكون ذي الجلال - قياسا على ما سبق- ويعرفه

---

(١) للتفصيل يراجع مجلد الشعاعات، يقرأ المسألة السادسة من رسالة الثمرة وهي الشعاع الحادي عشر ص٢٥٩.

لنا سبحانه بأسمائه الحسنة، ويعلمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة"[١]

وهكذا فإن النورسي كان شديد التصوير المادي لبحث قضايا علمية في غاية الدقة، كأمر الذرة وما يرتبط بها من تحريك، وحركة للكائنات الحية.

ثم في هذا التصوير استطاع النورسي أن يظهر دقة الصنعة ونظامها وانتظامها واتزان عملها بأسلوب علمي يقرب الحقائق المادية إلى الأذهان، ويربط بين الصور المادية وعملية الخلق الغيبية التي غالبا ما كان غيره يكتفي بذكر أنها غيبية، أو من الخوارق، فالنورسي يرى أن كل ما يوجد دال على الخالق البارئ المصور.

لقد وازن النورسي بين الصناعة المادية في عالم الأوروبيين وما يوجد فيه من معامل يصنع المواد المختلفة، والمتنوعة، وبين صناعة الخلق الإلهي من خلال أمر الذرة فبين أن المنتوجات الصناعية في العالم الأوروبي تخضع لقوانين الصناعة، وتعمل وفق نظام خاص ذي خصائص في غاية الدقة بصنع الإنسان ويعلم هذا الإنسان أن هذه المعامل لا يمكن أن تشتغل إلا بما يهيؤه الإنسان لها من نظام. لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الخالق مصدر هذا الخلق، ومبينا كيف تنشأ الأزهار والثمار من هذه الذرة الموجودة في حفنة تراب على حد تعبيره.

إن القوانين العقلية تقتضي الربط بين عملية الصناعة وعملية الإنشاء المادية، فالمعامل والمطابع مركز الصناعة المادية لا بد أن تشتغل وفق قوانين العقل بشكل منتج ينتج المنتوجات الصناعية، ولا يمكن أن نحصل على منتوجات دون مصانع.

هذا يجعلنا نفكر في أمر الخلق بالطريقة التي نفكر فيها في أمر المصانع والمطابع، الموجودة في العالم الأوروبي... فأمر الصناعة يخضع للعملية الصناعية التي تقوم على خلط وعجن المواد التي تنتج الصناعة، للحصول على مصنوع.

هذا الأمر يجعلنا نفكر أن تشكيل الأزهار والثمار يخضع لما تخضع له المعامل والمطابع، يقول النورسي: "فتشكيل تلك الأزهار التي لا بجد من تلك الحفنة من التراب بصورها المتنوعة البديعة وأشكالها المختلفة الزاهية وبهيئاتها المتباينة، الرائعة وهي في منتهى الانتظام، والإتقان تقتضي بالبداهة، وبالضرورة، أن توجد في تلك

(١) الشعاعات ص٢٦٠.

الحفنة من التراب من مصانع ومطابع معنوية بمقاييس صغيرة جذا أكثر مما في أوروبا من مصانع ومطابع كي تتمكن أن تنسج تلك المنسوجات الحية التي لا تعد، وتطرز تلك النفوس الزاهية المتنوعة التي لا تحصى"[١]

إن هذه الموازنة تقتضي القول بوجود شيء مصنوع بصانع، وشيء مخلوق بخالق قادر يدبر الأمر كيف يشاء، كما أن موازين العقل والعلم تنفي نسبه هذه الأشياء لغير صانع، ينظم صناعته، في منتهى الروعة والميزان وفي تمام الإتقان، وكمال الحكمة والاتزان.

هذه الصورة التي تجعل في المعامل والمطابع الموجودة في أوروبا مركز حديث عن أمر الصناعة وتقرب عملية الخلق بأسلوب عقلي يربط بين لبذرة الكامنة وراء الخلق وبين المادة المكونة لصناعة المنتوج، تتكرر في كتابات النورسي، وتربط بين الصناعة والنظام، وبين المعمل المكون لمواد الصناعة، وبين حفنة من التراب تحتوي على بذرة الخلق.

فالمادة التي تصنع منها الأشياء والبذرة التي تحرك الكائنات متوازيان من حيث العمل الصناعي مختلفان من حيث الإقدار الخلقي، ذلك أن للبذرة خالقا، ومقدرا، ذا قدرة مطلقة، وحكمة مطلقة في الصناعة، وهي وراء الكائنات بكل أنواعها.

بينما مادة الصناعة لا تعدو أن تقوم على مادة وخلط وعجن وتحليل يقوم بها العقل ويراها تخضع لقوانينه، مما ألبس على غير المؤمن أمر الخلق، فجعل الطبيعة خالقة دون منطق سليم.

والأمثلة تتعدد وتكثر في كتابات النورسي إلى درجة تجعل القارئ يقنع يأمر الخلق بأسلوب منطقي عقلي بعيد عن الخرافة والصدفة، والقول بغير مبدع صانع قدير.

فلو قرأت مثلا مثال القصر المشيد البديع يملأ القلب والعقل بروعة صنعته، وجمال بنيانه، ثم تعثر عل دفتر فيه تفصيل لعملية التشييد هذه، لوجدت أنك أمام قول أن هذا الدفتر هو الصانع أو أن هذا الدفتر فيه ما يدل على روعة الصانع، فلا شك أنك إن قلت أن الدفتر هو الصانع فتكون أمام صانع لا بد منه، وإن قلت إن هذا الدفتر مبين للإبداع الصانع فتكون قد أقررت بعظمة الصانع. هذا هو أمر الخلق.

---

(١) اللمعات ص ٢٧٦.

إن النورسي الذي دأب في جل ما كتب، على أن يربط بين الموضوع وبين اسم من أسمائه الحسنى، فإن هذا الربط بين أمر الصناعة المادية يكاد يجمع بين دقة التصوير المادي لعملية الخلق أولا، ثم دقة التعبير عن كل ما يرتبط بالنظام والانتظام والاتزان، والدقة والقوانين والإتقان ثانيا، وثالثا نفي كل ما من شأنه أن يخل بعملية الصنعة القائمة على القوانين والموازين التي يقول بها العقل والعلم.

لذا فما أجهل من لا يعرف أولا يؤمن بالفاعل المختار، وبالصانع الحكيم، الذي تدل عليه هذه الأنظمة البديعة والحكم الرفيعة، التي لا حد لها وهي مبثوثة في موجودات الكون قاطبة"[١]

هذا النظام بأنواعه البديعة التي لا تعد، والحكم بأشكالها السامية التي لا تحصى، والمندرجة في كل موجود في الكون شواهد صادقة على وجوب وجوده سبحانه وتعالى وعلة وحدانيته[٢].

لقد أكثر النورسي من تكرار هذه الصور في رسائله، حتى غدا جزءا بارزا من مشروعه، ولعل أهم ما يجوز التركيز عليه في هذا الحديث هو أن النورسي سعى إلى تحويل كل ما يبدو في الكون من علوم إلى أداة إلى تحقيق الإيمان الذي يعد أصل مشاريعه الإصلاحية. وأن ما كان المصلحون قبله يذكرونه على سبيل الإيمان به والتسليم برؤيته، حوله النورسي إلى مجال للتصوير العلمي الغاية منه هو أن الوجود والموجودات يجب أن تقرب من الله سبحانه وتعالى.

فما يشاهد من اختراعات علمية كل صورها ما هي إلا نتاج عقل سليم يؤمن بدقة الصنعة وحكمة الصانع، وأن المصنوعات الإنسانية صنعت لأهداف الحياة المادية والإعاشة كما يقول النورسي. فإن الموجودات الكونية خلقت تسخيرا للإنسان، وإرشادا له إلى صانع الكون وخالقه، ولذلك كل شيء بقصد، وكل مخلوق مرشد إلى الخالق. وهنا يطرح النورسي أمر الخلق ويقدمه في تصوير محكم.

وفي هذا التقديم الدقيق لصور الصنعة والصانع يعمد النورسي إلى رد كل ما من شأنه أن يجعل الأسباب المادية هي الموجدة للمخلوقات. فهذا يناقض العقل ويرفضه المنطق.

---

(١) اللمعات ٥٣٤.

(٢) اللمعات ٥٣٤.

إن المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر والحكيم العليم، في هذا العالم الكبير الذي هو صيدلية ضخمة رائعة لا يمكن أن توجد إلا بحكمة لا حد لها، وبعلم لانهاية له، وبإرادة تشمل كل شيء وتحيط بكل شيء يقول: " لذا فإن إسناد الموجود المنتظم المتناسق الموزون الواحد إلى أيدي الأسباب الطبيعية العمياء الصماء الجامدة غير المنضبطة والتي لا شعور لها ولا عقل، وهي في اختلاط شديد يزيد من عماها وصممها، ثم الادعاء بأن تلك الأسباب هي التي تقوم بخلق ذلك الموجود البديع واختياره من بين إمكانات واحتمالات لا حد لها، أقول إن قبول هذا الإسناد والادعاء هو في الحقيقة، قبول لمائة محال ومحال إذ هو بعيد عن جميع مقاييس العقل وموازينه"[١].

لقد استطاع النورسي أن يرصد حقيقة الربوبية من خلال التمثيلات التي تعد بمثابة مرآة تقرب الشؤون البديعة للمرء؛ فالذات الإلهية المتعالية في الوجود والعلم المطلق لهذه الذات لا بد أن تتجلى في الوجود بأكمله، والكائنات وأنواعها، ولذلك نجد النورسي يبحث في كل أنواع المخلوقات، ما يؤدي إلى الإقرار بالربوبية، وقد بين النورسي أن كل مخلوق يجلي الخالق، وأن الهدف من الخلق كله هو الوصول إلى الخالق. ولذلك فهو ينفي الصدفة كما ينفي العبث، معتمدا دليل الخلق في إثبات هذه الحقائق.

ومن حيث البحث عن النظام والدقة في النظام والصنعة بحث النورسي عن انتظام حروف الآي الكريمات فقال: "وهكذا فإن هذه الحروف بهذا الوضع المنتظم الخارق، مع تلك المناسبات الخفية والانتظام الجميل، والنظام الدقيق، والانسجام اللطيف، تثبيت بيقين جازم، كحاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي أربعا، أنه ليس من شأن البشر، ولا يمكنه أن يفعله، أما المصادفة فمحال أن تلعب به. هذا فإن ما في أوضاع هذه الحروف من الانتظام العجيب والنظام الغريب مثلما هو مدار للفصاحة والسلاسة، اللفظية، تمكن أن تكون له حكم كثيرة أخرى"[٢].

فإن النظام الكامل في الحروف يحمل تحته نظاما ذا أسرار، وانسجاما ذا أنوار لو رأته العين لقالت من إعجابها، ما شاء الله، وإذا أدركه العقل لقال من خيرته بارك الله...

---

(١) اللمعات ص ٢٧١

(٢) الكلمات ص ٤٣٨.

فالحكمة الكبرى عند النورسي هي البحث في أسرار الربوبية المتجلية في النظام الدقيق[١]، والظاهر في كل نوع من المخلوقات. ولعل أكبر دليل عند النورسي هو ذلك الانسجام بين حروف الآي الكريمات، الذي بحثه البلاغيون فوقفوا عند أسرار لفظه وبين هذا النظام في الخلق الذي فصل فيه النورسي، مبينا الحكمة من أسرار اللفظ وإعجاز البيان، وانسجام الحروف والفواصل والكلمات والجمل والآي وأنه كله يرشد إلى الصانع وحكمة الصانع ودقة النظام وأسرار الخلق.

المراجع

١- النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢.

٢- النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣.

٣- النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣.

٤- النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٤.

(١) بالمناسبة فإن مشروع النورسي في جانبه العلمي يكاد ينحصر في إثبات الربوبية لما للعلم من صلة في عملية الخلق.